بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾

الحَمْدُ للهِ ذِي الفَضْلِ العَظِيمِ، وَالإِحْسَانِ العَمِيمِ، وَأَشْهَدُ أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾(١)، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، مَنْ وَصَفَهُ رَبُّهُ بِقَولِهِ: ﴿ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾(٢)، ﷺ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَأَتْبَاعِهِ ذَوِي الخُلُقِ الكَرِيمِ.

أَمَّا بَعْدُ، فَاتَّقُوا اللهَ -عِبَادَ اللهِ-، وَتَأَسَّوْا بِرَسُولِ اللهِ، فَإِنَّهُ الأُسْوَةُ الحَسَنَةُ ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾(٣).

أَيُّهَا المُؤْمِنُونَ:

إِنَّ نَبِيَّنَا ﷺ قَدْ خَصَّهُ اللهُ بِصِفَاتٍ لَمْ تَكُنْ لأَحَدٍ مِنَ المَخْلُوقِينَ قَبْلَهُ وَلا بَعْدَهُ، وَحَسْبُنَا أَنَّ اللهَ جَلَّ جَلالُهُ وَصَفَهُ بِصِفَتَيْنِ كَرِيمَتَيْنِ وَصَفَ بِهِمَا نَفْسَهُ، وَهُمَا الرَّأْفَةُ وَالرَّحْمَةُ؛ فَكَانَ فِي ذَلِكَ إِلْمَاحٌ أَنَّ رَسُولَ اللهِ قَدْ بَلَغَ فِيهِمَا الغَايَةَ، وَوَصَلَ فِيهِمَا إِلَى النِّهَايَةِ؛ فَهُوَ أَرْأَفُ خَلْقِ اللهِ بِخَلْقِهِ، وَهُوَ أَرْحَمُ المَخْلُوقِينَ بِالمَخْلُوقِينَ، وَلَمْ تَكُنْ رَحْمَتُهُ بِالأَحْيَاءِ فَحَسْبُ، بَلْ كَانَتْ لِلْجَمَادَاتِ أَيْضًا؛ وَلِذَلِكَ قَالَ فِيهِ الحَقُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾(٤)، نَعَمْ، هُوَ رَحْمَةٌ لِلْعَالَمِينَ مِنَ الأَحْيَاءِ وَالجَمَادَاتِ، وَمَا أَكْثَرَ صُوَرَ رَحْمَتِهِ! وَمَا أَكْثَرَ مَا نُقِلَ عَنْ ذلِكَ مِنْ أَخْبَارِهِ! وَهَلْ ذَلِكَ المَنْقُولُ إِلاَّ نُقْطَةٌ مِنْ بَحْرٍ أَوْ ذَرَّةٌ مِنْ رِمَالٍ!

وَمَا أَحْوَجَنَا - عِبَادَ اللهِ - إِلَى الوُقُوفِ عَلى مَظَاهِرِ رَحْمَتِهِ، وَدِرَاسَةِ تَجَلِّيَاتِ رَأْفَتِهِ!

(١) سورة السجدة/ ٦.
(٢) سورة التوبة/ ١٢٨.
(٣) سورة الأحزاب/ ٢١.
(٤) سورة الأنبياء/ ١٠٧.

لِتَكُونَ لَنَا عَوْنًا عَلى غَرْسِ الرَّأْفَةِ فِي قُلُوبِنَا، فَإِذَا حَدَّثَتْنَا نُفُوسُنَا بِقَسْوَةٍ تَذَكَّرَتْ رَحْمَةَ رَسُولِ اللهِ فَرَدَّتْ إِلَى مِنْهَاجِ رَسُولِ اللهِ؛ لِيَكُونَ التَّأَسِّي بِهِ سَجِيَّةً قَلْبِيَّةً وَصِفَةً نَفْسِيَّةً، وَلَيْسَ شَيْئًا تَتَكَلَّفُهُ نُفُوسُنَا؛ فَنَنْتَظِمَ فِي سِلْكِ المُسَارِعِينَ فِي الخَيْرَاتِ؛ فَإِنَّ المُسَارِعِينَ فِي الخَيْرَاتِ هُمُ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الطَّاعَاتِ عَنْ رَغْبَةٍ وَمَحَبَّةٍ، لا عَنْ تَكَلُّفٍ وَمَشَقَّةٍ. وَلْنَنْظُرْ كَيْفَ أَنَّ الحَقَّ جَلَّ جَلالُهُ بَدَأَ بِذِكْرِ الرَّأْفَةِ وَثَنَّى بِذِكْرِ الرَّحْمَةِ، وَقَدْ يَكُونُ فِي ذَلِكَ إِرْشَادٌ إِلَى أَنَّ الرَّأْفَةَ صِفَتُهُ القَلْبِيَّةُ، وَالرَّحْمَةَ تِلْكَ الأَقْوَالُ وَالأَفْعَالُ الَّتِي تَفِيضُ رِقَّةً وَحُبًّا لِلْخَيْرِ لِلنَّاسِ، فَالرَّحْمَةُ النَّبَوِيَّةُ قَوْلًا وَفِعْلًا آثَارُ رَأْفَتِهِ ﷺ؛ فَكَانَتِ الرَّأْفَةُ حَقِيقَتَهُ البَاطِنَةَ، وَالرَّحْمَةُ حَقِيقَتَهُ الظَّاهِرَةَ؛ وَلا عَجَبَ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنَ التَّرْبِيَةِ الرَّبَّانِيَّةِ وَالتَّأْدِيبِ الإِلَهِيِّ، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: ((أَدَّبَنِي رَبِّي فَأَحْسَنَ تَأْدِيبِي)).

وَإِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَتَحَدَّثَ عَنْ رَحْمَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَحَدِّثْ عَنِ البَحْرِ! فَإِنَّكَ سَتَجِدُهَا فِي تَعَامُلاتِهِ مَعَ أَهْلِهِ وَمَعَ أَوْلادِهِ، وَمَعَ أَحْفَادِهِ وَمَعَ مَنْ يَخْدُمُهُ، وَمَعَ أَصْحَابِهِ وَمَعَ أَعْدَائِهِ، وَمَعَ النِّسَاءِ وَمَعَ الرِّجَالِ، وَمَعَ الصِّغَارِ وَمَعَ الكِبَارِ، وَمَعَ المُصِيبِ وَمَعَ المُخْطِئِ، وَمَعَ الإِنْسَانِ وَمَعَ الحَيَوَانِ، وَمَعَ الحَيِّ وَمَعَ الجَمَادِ، بَلْ إِنَّ الرَّحْمَةَ تَفِيضُ مِنْهُ فِي كُلِّ حِينٍ حَتَّى فِي حِينِ صَلاتِهِ، فَقَدْ وَرَدَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يُصَلِّي وَهُوَ حَامِلٌ أُمَامَةَ بِنتَ زَينَبَ بِنتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَإِذَا سَجَدَ وَضَعَهَا وَإِذَا قَامَ حَمَلَهَا، وَقَدْ صَلَّى النَّبِيُّ ﷺ بِالنَّاسِ صَلاةَ الفَجْرِ فَقَرَأَ فِي الأُولَى بِسُورَةِ مَرْيَمَ، وَقَرَأَ فِي الأُخْرَى بِسُورَةِ ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾[1]، فَلَمَّا سُئِلَ عَنْ ذَلِكَ أَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ سَمِعَ صَبِيًّا يَبْكِي، فَخَشِيَ أَنْ تَكُونَ أُمُّهُ تُصَلِّي مَعَ النَّاسِ فَتَتَأَخَّرَ عَلَيْهِ؛ فَتَجَوَّزَ فِي صَلاتِهِ رَحْمَةً بِهِ وَبِأُمِّهِ، وَهُوَ الَّذِي يَقُولُ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ: ((إِنِّي لَأَقُومُ في الصَّلاةِ أُرِيدُ أَنْ أُطَوِّلَ فِيهَا، فَأَسْمَعُ بُكَاءَ الصَّبِيِّ، فَأَتَجَوَّزُ في صَلاتي كَرَاهِيَةَ أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمِّهِ)).

فَهَذَا فِي الصَّلاةِ – عِبَادَ اللهِ – فَكَيْفَ بِرَحْمَتِهِ وَهُوَ فِي غَيْرِ الصَّلاةِ! وَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَرَى شَيْئًا مِنَ الفِعْلِ لا يَلِيقُ، فَيَقُومُ إِلَى إِصْلاحِهِ لِيَتَنَبَّهَ النَّاسُ أَنَّهُ خَطَأٌ، وَيَعِظُهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَسْأَلَ عَنِ الفَاعِلِ؛ فَيَتَنَبَّهُ الفَاعِلُ لِخَطَئِهِ وَيَنْتَبِهُ النَّاسُ، وَتَزْدَادُ مَحَبَّتُهُ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ، حَتَّى قَالَ أَحَدُهُمْ: ((بِأَبِي هُوَ وَأُمِّي، مَا رَأَيْتُ مُعَلِّمًا، قَبْلَهُ وَلا بَعْدَهُ، أَحْسَنَ

(١) سورة الإخلاص/ ١.

تَعْلِيمًا مِنْهُ)).

أَقولُ قَوْلِي هَذَا وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ العَظِيمَ لِي وَلَكُمْ، فَاسْتَغْفِرُوهُ يَغْفِرْ لَكُمْ إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ، وَادْعُوهُ يَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّهُ هُوَ البَرُّ الكَرِيمُ.

****

الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ، وَأَشْهَدُ أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، عَلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَأَتْبَاعِهِ الكِرَامِ.

أَمَّا بَعْدُ،

فَاتَّقُوا اللهَ –عِبَادَ اللهِ–، وَانْظُرُوا في مَظَاهِرِ رَأْفَةِ النَّبِيِّ ﷺ، وَتَدَبَّرُوا فِيمَا بَلَغَكُمْ مِنْ أَخْبَارِ رَحْمَتِهِ، تُدْرِكُوا اسْتِحْقَاقَهُ لِوَصْفِ رَبِّهِ لَهُ ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[1]، وَمَاذَا نَذْكُرُ وَمَاذَا وَمَاذَا نَتْرُكُ! فَكُلُّ حَرَكَاتِهِ وَسَكَنَاتِهِ، وَكَلِمَاتِهِ وَنَظَرَاتِهِ، وَأَفْعَالِهِ وَتَعَامُلاتِهِ، رَحْمَةٌ لِلْعَالَمِينَ، وَتَأَمَّلوا في تَعَامُلِهِ مَعَ مَنْ يَخْدُمُهُ وَيَعْمَلُ مَعَهُ، فَهَلْ سَنَجِدُ أَرْقَى مِنْ ذَلِكَ! فَقَدْ قَالَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ، وَقَدْ خَدَمَ النَّبِيَّ ﷺ عَشْرَ سِنِينَ: ((خَدَمْتُ النَّبِيَّ ﷺ عَشْرَ سِنِينَ، فَمَا أَمَرَنِي بِأَمْرٍ فَتَوَانَيْتُ عَنْهُ أَوْ ضَيَّعْتُهُ فَلامَنِي، فَإِنْ لامَنِي أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ إِلَّا قَالَ دَعُوهُ؛ فَلَوْ قُدِّرَ أَنْ يَكُونَ كَانَ))، وَقَالَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: ((مَا قَالَ لِي أُفٍّ قَطُّ، وَلا قَالَ لِشَيْءٍ فَعَلْتُهُ: لِمَ فَعَلْتَ كَذا، وَلا لِشَيْءٍ لَمْ أَفْعَلْهُ: أَلَا فَعَلْتَ كَذا))، بَلْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُعَامِلُ مَنْ يَخْدُمُهُ وَيَعْمَلُ مَعَهُ فِي بَيْتِهِ مُعَامَلَةَ أَهْلِ بَيْتِهِ وَيَأْمُرُ بِذَلِكَ، فَقَدْ قَالَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ: ((هُمْ إِخْوَانُكُمْ، جَعَلَهُمُ اللهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ، وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ، وَلا تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ، فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُمْ))، وَقَالَ ﷺ: ((إِذَا جَاءَ خَادِمُ أَحَدِكُمْ بِطَعَامِهِ فَلْيُقْعِدْهُ مَعَهُ أَوْ لِيُنَاوِلْهُ مِنْهُ؛ فَإِنَّهُ هُوَ الَّذِي وَلِيَ حَرَّهُ وَدُخَانَهُ))، نَعَمْ، إِنَّهُ رَسُولُ اللهِ، الرَّحْمَةُ المُهْدَاةُ وَالنِّعْمَةُ المُسْدَاةُ.

(١) سورة التوبة/ ١٢٨.

هذَا، وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى رَسُولِ اللهِ الأَمِينِ، فَقَدْ أَمَرَكُمْ رَبُّكُمْ بِذَلِكَ حِينَ قَالَ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾[1].

اللَّهُمَّ صَلِّ وسَلِّم عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ وسَلَّمتَ عَلَى نَبِيِّنَا إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ نَبِيِّنَا إِبْرَاهِيمَ، وَبَارِكْ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى نَبِيِّنَا إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ نَبِيِّنَا إِبْرَاهِيمَ فِي الْعَالَمِينَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ، وَارْضَ اللَّهُمَّ عَنْ خُلَفَائِهِ الرَّاشِدِينَ، وَعَنْ أَزْوَاجِهِ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ، وَعَنْ سَائِرِ الصَّحَابَةِ أَجْمَعِينَ، وَعَنِ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ، وعَنْ جَمْعِنَا هَذَا بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ.

اللَّهُمَّ اجْعَلْ جَمْعَنَا هَذَا جَمْعًا مَرْحُومًا، وَاجْعَلْ تَفَرُّقَنَا مِنْ بَعْدِهِ تَفَرُّقًا مَعْصُومًا، وَلا تَدَعْ فِينَا وَلا مَعَنَا شَقِيًّا وَلا مَحْرُومًا.

اللَّهُمَّ أَعِزَّ الإِسْلامَ وَاهْدِ الْمُسْلِمِينَ إِلَى الْحَقِّ، وَاجْمعْ كَلِمَتَهُمْ عَلَى الخَيْرِ، وَاكْسِرْ شَوْكَةَ الظَّالِمِينَ، وَاكْتُبِ السَّلامَ وَالأَمْنَ لِعِبادِكَ أَجْمَعِينَ.

اللَّهُمَّ يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ يَا ذَا الجَلالِ وَالإِكْرَامِ، لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ بِكَ نَستَجِيرُ، وَبِرَحْمَتِكَ نَستَغِيثُ أَلاَّ تَكِلَنَا إِلَى أَنفُسِنَا طَرفَةَ عَينٍ، وَلاَ أَدنَى مِنْ ذَلِكَ، وَأَصلِحْ لَنَا شَأْنَنَا كُلَّهُ يَا مُصلِحَ شَأْنِ الصَّالِحِينَ.

اللَّهُمَّ رَبَّنَا احْفَظْ أَوْطَانَنَا وَأَعِزَّ سُلْطَانَنَا وَأَيِّدْهُ بِالْحَقِّ وَأَيِّدْ بِهِ الْحَقَّ يَا رَبَّ العَالَمِينَ، اللَّهُمَّ أَسْبِغْ عَلَيْهِ نِعمَتَكَ، وَأَيِّدْهُ بِنُورِ حِكْمَتِكَ، وَسَدِّدْهُ بِتَوفِيقِكَ، وَاحفَظْهُ بِعَينِ رِعَايَتِكَ.

اللَّهُمَّ أَنْزِلْ عَلَيْنَا مِنْ بَرَكَاتِ السَّمَاء وَأَخْرِجْ لَنَا مِنْ خَيْرَاتِ الأَرْضِ، وَبَارِكْ لَنَا في ثِمَارِنَا وَزُرُوعِنَا وكُلِّ أَرزَاقِنَا يَا ذَا الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ.

رَبَّنَا آتِنَا في الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ.

اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِلْمُؤْمِنِينَ وَالمُؤْمِنَات، المُسْلِمِينَ وَالمُسْلِمَات، الأَحْيَاءِ مِنْهُمْ وَالأَمْوَاتِ، إِنَّكَ سَمِيعٌ قَرِيبٌ مُجِيبُ الدُّعَاءِ.

عِبَادَ الله ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴾.

(١) سورة الأحزاب/ ٥٦.